



مضموناً . جلد نخين ، رأس صلب ، معدة طحانة ، هذا خليل . يحمل شهادته الجامعية كدروع يصد عنه تهمة من يقول انه « غير مثقف » . ثقافة ؟ الثقافة هي أن تملك بيتاً فيه عشر غرف ، وسيارة . وعدة مئات من الاسم - والبقية تأتي . انها حينئذ تأتي طائفة غنارة : زوجة (جميلة في الغالب) ، مركز (محسود في الغالب أيضاً) ، و فلوس أخرى ولكن يجب ان تستعد كخليل لان تفعل ، لا كل ما يجوز فعله ، بل كل ما يمكن فعله ، وتذكر الفارق .

« خليل ، بالاختصار ، رجل ناجح . قد يقال انه شره ، طاع ، بخيل - هذا ليس الا كلام الخاسدين . اما انت ، فا الذي تفعله ؟ تأتي كل يوم لتحذني عن صداقتك القديمة بخيل ، وترفض الاعتراف بأنه ناجح . وما يضيره انه صغير المينين ، كبير الشفتين ؟ انه سيتزوج عن قريب من أميمة ، وما الذي ستفعله انت حينئذ ؟ ستجلس معي في المقهى ، وتحصي الفادين والرائحين ، وسأحدثك كيف ضاجعت أمس فضيلة بعد ان شربت ربماً من العرق ، وتحذني انت عن القصيدة التي نظمنا وخجالت من تلاوتها . حين تكتب قمع نفسك ، يا مصطفى ، يلتف خيالك حول ساق أميمة ، ولكنك تكتب عن عينها ، تمنى لو تجرها من شعرها الى ضفة دجلة وتترمرغ معها عارية في الطين ، ولكنك تكتب عن لوعة نظيفة نقية ، كأنها لم تصدر عن شبق لا يرحم وخيبة لا تلين . فضيلة يا عزيزي في انتظارك . فضيلة نقية على طريقته ، وهي لا ترفع فوق رأسها اية شهادة لتوهم الناس بأنها مثقفة . هي هي . وجودها ماهيتها ، والعكس بالعكس . لا شوائب ولا مركز ولا بيوت ولا سيارة شفروليه . فضيلة في انتظارك في اسفل السلم . »

لم ينطق مصطفى أحمد بكلمة ، وجلسه في المقهى يتدقق كلاماً . كان العرق ينضح من جبين مصطفى على رسله - يمسحه بين الآونة والأخرى بكف يده ، وكوعاه متكئان على المائدة الحديدية الصغيرة .

ولم يكن عباس ليأبه أبيض مصطفى اليه ام لا . فقد شرب شيئاً من العرق في الدار - ما يكفيه للانطلاق بالكلام دون ان يهرمه اذا كان هناك من يصغي اليه ما دام يجالسه . وقد جاء الى المقهى حيث لقي مصطفى جالساً وحده يقرأ في كتاب عن علم النفس ، وهو عالم تمام العلم بأنه اذا جاء هنا بعد العاشرة مساء سيجد مصطفى في انتظاره ، حاملاً كتابين أو ثلاثة ، بعضها عربي وبعضها انكليزي ، وقد اتسخت غلافاتها بيد سخية العرق .

ولكن مصطفى لم ينطق بكلمة . لم يكن شارد الذهن ، بل كان يصغي الى كل كلمة تفوح منها الكحول بين شفتي عباس . عباس جملة السرحان ، خريج كلية الحقوق - المناسب في احدى دوائر الحكومة ، الذي اهترأت اطراف اصابه بعد الدنانير ، دون ان يستطيع ان يضع شيئاً منها في جيبه .

« خذ خليلًا مثلاً . هل يتردد في فتح فكيه ليتلقى بينها سيلاً من الفلوس ؟ صورة رائمة ! خليل ، بشفتيه الغليظتين ، وشاربه الأشبه بفرشاة اسنان قديمة ، يغمض عينيه ويفتح فكيه - اكثر فاكثر فاكثر ، واذا الفلوس الدافقة تراب يستقر في حلقة وعلى لسانه ، واذا هو يعمل ، ويصق ، ويتفتف ، ويشتم شرف فلان وفلان ، ويتمنى لو ينهش باسنانه اعراضهم جميعاً .

« لم اتم ليلة البارحة الا ثلاث ساعات . ذهبت عند فضيلة . فضيلة ! سامح الله والديها . سألني ابنتي خطيئة ، لكي تنبئني الى وجودها . لم اتم لانني كنت افكر في الفضيلة والرديلة . اين نضع خليلًا مثلاً بين طرفي الفضيلة والرديلة ؟ ما هي الخطايا الممثلة السبع ، وايتها تنطبق عليه ؟

« ولكنني اتساءل احياناً لماذا اوزع على الناس احكاماً دون ان احكم على نفسي ؟ هذه على الاقل فضيلة يجب ان اتحلى بها . سأحكم على نفسي اولاً ، ثم على الآخرين . ومن حلت عليه لعنة الآلهة لا يرى ضيراً في حلولها على غيره . واللجنة لا بد من حلولها - اليوم او غداً ، او بعد غد . فلا ترفع خشمك علينا ، لانك انت ايضاً ستكون هدفاً للعنة .

« وكنت قبل لحظة على وشك القول ، ماذا يهمك من امري حتى أتعجب عليك ، وانت تريد الحديث عن خليل ، عدوك الوفي وحبيك اللدود ولكن امري مهم لديك اهميته لدي . لانني اقود وانت تتبع . لانني وضعت السلم لك لا لتصعد عليه - وذلك مستحيل - بل لتنزل عليه ، اسفل ، فأسفل ، فأسفل . ولكنني سأكون هناك قبلك ، سأكون هناك مع الحاقدين والمحبين ، مع الذين يقضون الليالي على السطوح متأففين من القمر ، والذين يشتمون الحمام في الصباح لنواحه البغض . مسكين ذلك الشاعر الذي بكى لنوح الحمام السجين في بغداد ولم يبك للناس :

ناحت مطوقة بباب الطاق

فجرت سوابق دمي المهرق

لم انه بكى لنفسه السجينة ؟ مسكين . اننا اليوم لا نبكي . بل نصخب ونشتم . ولهذا فاني فجر هذا اليوم ، وانا في سريري على السطح ، عندما حطت حمامة على مقربة مني امسكت بكأس الماء التي كانت على المائدة الصغيرة قرب فراشي وقذفها بكل عزمي ، ففرت وهي تنوح ، وكست الشظايا الارض حولي . وبعد خمس دقائق قت من الفراش ، ودست على شظية منها دخلت قدمي بنعومة ، فرقت من الألم : حار ، حار . كيف تنسى الشظايا بهذه السرعة ؟ ولكن هذا الحمام شيء مزعج في الصباح المبكر كأنه يهدله الكتيب المتلاحق عند الفجر يحذرك من التفاؤل ، ويذكرك بانك ما زلت تهبط السلم . درجة درجة ، درجة .

« خليل الصفايري ، كما قلت ، لا يأنف من شيء ما دام الفلس فيه

وفجأة وقف مصطفى ، وتناول الكتب التي على المنضدة الصغيرة . فنظر إليه عباس من على مقعده وقال :
« مستعجل ؟ عندك شغل ؟ »
فلم يجب مصطفى ، بل مشى في اتجاه الباب ، والقى باربعين فلساً في طبق صاحب المقهى ، وخرج الى الطريق . فالحق به عباس ، ومشى بجاذاته ، وقال :

« من يستطيع النوم مبكراً في هذا الحر ؟ انا اصلاً لا انام أكثر من اربع او خمس ساعات هذه الليالي . اترافقني فنذهب الى « الاكروبولس » ؟ لم نذهب هناك منذ زمن . وقد اكتشفت بيتاً جديداً على مقربة منه . » فقال مصطفى : « الاكروبولس ؟ لا . اني ذاهب الى البيت . » وعلى ايقاع خطواتها تكرر الاسم الاغريقي في ذهن مصطفى - اكروبولس ، اكروبولس ، نكروبولس - نكرو - بولس ، مدينة الموتى ، موتى ، ومنها الى بيت جديد ، الى فضيلة جديدة . تفضلوا استريحوا . اربع بنات . سنية ؟ والله مشغولة الان . بعد ربع ساعة . فضيلة . أميمة مشغولة . خليل معها . بعد عشرين سنة - ربما ، يكون خليل قد فرغ ، وأميمة ؟ عمرها اربعون او خمس واربعون سنة ، او خمسون . وانا ما زلت انتظر في الغرفة الخارجية . عجب ، ما زالت تبدو صبية . هي هي . فضيلة وجودها ماهيتها ...

وعباس ما زال يقول : « من يستطيع الذهاب الى البيت الان ؟ بيتنا مثل جهنم . لا من حيث الحر فحسب ، بل من ناحية من هم فيه . وانا لا اعلم كلما دخلته أنا من شياطينه ام روح من عالم الموتى يزج في فيه . تصور ، وصلت البيت البارحة في الواحدة بعد منتصف الليل » ولكن مصطفى لم يسمع من البقية الا كلمات لا تسجل معنى في ذهنه . فقد تذكر الليلة السابقة .

« عاش من شافك ! » قالها خليل كأنه يعزبها فعلاً ، وقد وقف ليصافحه في حديقة نادي الحمامين . فانقلب مصطفى الى كتلة تسنز بالعاطفة لمدة دقيقتين وقال :

« من الذي انشغل عن الآخر يا خليل ؟ »
- والله ، مصطفى ، انا مقصر ، ولكنك تدري ...
- لا والله لا ادري . تعيب عنا ، بل تتخلى عنا .
-- الله اعلم بما في القلوب .

كاد مصطفى يمانق خديلاً ، بل كاد يقبله على خده ، فيضع في قبلته حرارة صداقة طويلة العهد ، ترجع الى ايام الطفولة . ولكنه كان يعلم ان خيالاً قد « اختلف » منذ سنة او اكثر ، منذ انه جعل يشتغل بالتجارة والسياسة ممأ . وقد رآه مصطفى يبتعد عنه يوماً بعد يوم حتى يبلغ ذلك البعد السحيق الخيف الذي تعبر عنه نظرة جامدة هنا وكلمة زاجرة هناك . اما في تلك اللحظة فقد شعر أن المسافة بينهما تلاشت واذا هما قريبان قريهما القديم . غير ان الشعور لم يدم الا ثواني معدودة ، فقد داهمها رجل لا يعرفه مصطفى ، اخذ بيد خليل مصافحاً وقال : تهانينا ! مبروك ! » وانسحب و خليل يشكره .

فسأله مصطفى : « على م هذه التهيئة ؟ يظهر ان اخبارك ما عدنا نسمعها » فانبسط تقاطيع خليل ، وبدا كأن وجهه سيعرض عرض العمارة التي وراءه جذلاً ، حين تحركت شفتاه كطرفتين في اتجاهين متضادين ، وقال :
« ألم تسمع أنني خطبت ؟ »
- لا والله . على من ؟

- على أميمة ، أميمة عثمان السماوي .
« أميمة ؟ » قالها مصطفى قبل ان تنص الكلمة في حلقه . وأحس بقلبه يغور في أحشائه .
- أتعرفها ؟
- آ بالوجه فقط .

(بالوجه فقط ! كان الاجدر به ان يقول : بالدم ، ولنفائف اللحم ، وتلافيف الدماغ . بالاحشاء والكبد والمرارة . أليست تلك معرفة اعمق واوثق من معرفة اللسان ؟ وهذه القصائد الكثيرة التي يجمل من تلاوتها لاجد - أليست دليل معرفته بها ؟ لم يحدتها أمسيات طويلة وهو قابع وحده في هذا المقهى وذاك ، وهو يسود اوراقاً قنشي بكعبها العالي على كل سطر فيها ؟ إن لم تكن تلك معرفة - أوه ، بالوجه فقط !)
وقال خليل : « لقد مضت سنتان وانا اشتغل مع ابياها ، ونحن الان نوسع مكتبنا . »

- هذا ما سمعته .
- لم لا تأتينا الى المكتب ؟
- سأتي .
- اتعرف رقم التلفون ؟
- سأجده في الدليل .
- باسم عثمان السماوي - المكتب . بعد السادسة مساء اذا امكن ، لاننا في بقية النهار مشغولون جداً .
فتمنى مصطفى لو يغور ، لو يهوي الى اعماق الارض حيث لا يرى وجهه مرة ثانية . فقد شعر ان خيالاً يفتح باباً يسوقه اليه ، ويقول له : تفضل واخرج ، وعد اليها في مناسبة اخرى .

« .. وامي كالمادة تنحنح كلما جئت متأخراً لتثبت لي انها مستقيظة في انتظاري . ولكن دون ان تفوه بكلمة . تنحنح فقط ، كأنها تقول : لا تظن انني أجبل اين كنت ... النساء لا يخفي عليهن شيء . نحن الرجال ابرياء سذج اذا قيس الواحد منا بأية امرأة - او اية فتاة . والحرارة تنضج المرأة بسرعة ، كما تنضج الفاكهة . ها مصطفى ! ضمها في احدى قصائدك ! » والشمس تنضج المرأة عاجلاً ، وما المرأة الا فاكهة » طبعاً الوزن مكسور . ولكن الحقيقة تنخطى الاوزان والقوافي : نساء كالفواكه عفنت قلوبها ، ورجال كالاطفال يريدون التهامها فيعلق الدود بأسنانهم ويبقى العفن في زلاعمهم ! وانا اقول لك يا مصطفى : لقد عضضت الفاكهة ، واكاد ارى الدود بين شفتيك ... »

كانت اعمدة شارع الرشيد تتلاحق ظلها على وجه مصطفى ، وهو يعيش على طرف الرصيف المسقوف ، وعباس لا ينقطع عن الكلام وهو منمور في الظل بعيداً عن النور المسلط على وسط الشارع . وفي الرواق المديد لهاث لافح ، يقترب بين الحين والآخر بنفحة شديدة النتن تجود بها البواليع .

وأضاف عباس « ... ولو كنت مكانك لبصقت الدود في وجه خليل ، ليأخذه الى أميمة المزينة ، ليعيده الى مصدره الاول . »

ومر مصطفى براحة يده فوق جبينه وصدغه وخده يسمح بها نضج العرق . واحس كأن الكتب بحرارة يده الاخرى وعرقها تكاد تذوب . ثم قال :
« ولكن ما دخل أميمة بكل ذلك ؟ »

فانهال عباس على السؤال ينهشه نهشاً : لأميمة كل الدخل . ان لم تكن أميمة ، فهي فاطمة ، وان لم تكن فاطمة فهي انعام . الواحد في الكل ،

والكل في واحد - سوى فضيلة بالطبع فضيلة . تعترف بأنها مصنوعة من طين . الشمس تقويها ، ثم تلوحها ، ثم تصدعها الى ان تنهار . اما الاخريات فبن فواكه ولا يرى مدخل الدود الى قلوبهن الا من كانت له عين فاحصة . وهنا الخطر . الخطر في اللؤم والرياء . الخطر في أن ترى خابلاً يتخلى عن كل رابط ووازع دون أن تحرك انت ساكناً ، لانه قد ابقى على مظاهر الروابط والمكارم ... الخطر في الا ترى مدخل السوس الى قلبه .

- ولكن ما دخل أميمة بذلك ؟

- قلت لك كل الدخل . لعلك تقول ان خليل لا يعرف حبك لها ، وان كايها غافل عنك لا يشعر بوجودك . ذلك عين الخطأ . كلاهما يحمل ذكرك عبثاً ثقيلًا على ضميره . ولو ظهرت الآن فجأة امام خليل ، لرأيت كيف يشجب لونه وترنح اوصاله . ولو ظهرت فجأة امام أميمة لرأيتها كيف ترفع كفيها الى وجهها وتقطع عليك بالبكاء .

- ولكن خليل لا يعرف شيئاً عن علاقتي بأميمة .

- اقول لك انك ساذج ولكنك لا تصدقني . اسمع التفاصيل اذن . قبل اسبوعين - لا بل اكثر بكثير - المهم ، قبل مدة جاءني خليل الصفايري ليقبض من الدائرة مبلغاً بالف وثلاثمائة وسبعة وخمسين ديناراً . فاستحضرت له استكان شاي ، وقدمت له سيجارة ، وسألته عن احواله ، الى ان ذكر لي انه سيخطب . قلت له على من ؟ قال : أميمة . قلت : أكيد ؟ قال بالطبع . فلم اتردد بالقاء القنبلة في وجهه وقلت : ولكن الا تعلم ان مصطفى أحمد ... يجب ... يريد ، ومن زمن طويل ؟ قال - وهذه كلماته بالحرف الواحد - قال : بالله اتركنا من هذا المتوه . قالها كأمر مفروغ منه . ثم أضاف : طبعاً سمعت انه يهبها . ولكن الاشراف له ان يستحي . أميمة عارفة بالموضوع ومتضايقة جداً ...

- أميمة متضايقة جداً ؟

- متضايقة جداً

(وفي الحال كان مصطفى على عتبة باب خليل . كان البيت مظلاً ، والما ضغط على زر الجرس ، واعاد الضغط واطاله ، لم يجبه احد . فبقي واقفاً مكانه ، وهو يتصب عرقاً . ثم جاء خليل في سيارته الشفروليه ، ووقفها بالبوابة ونزل منها ، فتقدم منه مصطفى بخطى ثابتة نازلاً درجتي مدخل البيت ، فاجفل خليل ، وتراجع الى الوراء ، وامسك باحد مصراعي البوابة الحديدية . ثم نطق :

« اوه ... مصطفى ... خوفني ! »

- صحيح ؟

- لندخل البيت . لا بد عندك شيء مهم ، والا لما جئتني في هذه الساعة - عندي شيء مهم . ولكننا لن ندخل البيت . بل لن تدخلك انت ابداً . مصطفى ، ما هذا الكلام ؟

ورفع مصطفى قبضتين متشجتي الاصابع ، وقال : « ماذا قلت عني بخصوص أميمة ؟ »

فانحبس الصوت لحظتين في حلق خليل ، الى ان جاء في بحة جافة : « لم ... أقل ... شيئاً .. »

- امتضايقة أميمة مني ؟

- لم أقل شيئاً ... والله .

وارتفعت يد مصطفى مفتوحة الاصابع ، وقد استحال كل اصبع منها فولاداً عاتياً ، وقال : « أميمة متضايقة مني ؟ » وتراجع خليل هابطاً درجة البوابة وعيناه جاحظتان وارطم ظهره بسيارته ، ومصطفى يخطو معه خطوات ضيقة ثابتة شريرة . ثم هوى على عنقه مرة واحدة بكنتا يديه ،

ودفع ابهاميه في حنجرته ، ضاغطاً ، ضاغطاً ، بعزم . وعنف الى ان سمع حنجرته تنطق ، ووقع رأسه جانباً ، ثم خر على الارض لا حراك فيه . ومسح مصطفى براحته العرق عن جبينه ، وبكل هدوء عاد ماشياً الى شارع الرشيد ...)

« مصطفى ! اما تسمع ؟ »

- ها ؟

- سألتك ، الا تنزل معي في هذا الزقاق ؟

- لماذا ؟

- أعرف بيتاً هنا فيه بنات لم اجبه منذ زمان .

- ها ؟ بيت ؟ اي والله . لا . لا .

- ما هذا التردد ؟

- لانني اذا لم أشرب ، يا عباس ، لا استطيع مجابهة هؤلاء النساء . فضحك عباس ضحكة من كسب لمبة بعد عناء شديد ، وطبطب على كف مصطفى وقال : « لم لا تحكي ، لم لا تحكي ؟ » وطبطب على كتفه مرة أخرى .

غير أن مصطفى شعر أن عباساً يسحقه بكفه المتوددة ، وهز بكفيه ياقبي بلمسته عنه .

وأردف عباس : « الآن أنسبك أميمة . ولكن اسرع ، قبل ان يعزل ابو بطرس . »

وانته مصطفى الى نفسه وقدماه تخطوان خطوات واسعة متسارعة ، وهو يقول : « قبل يومين أو ثلاثة قتل رجل زوجته في شارعنا بالعصا . هوى بالعصا على رأسها فسقطت مكانها مفلوكة الجمجمة . »

وكانه لم يغب على عباس ان هناك اتصالاً خفياً بين هذه العبارة المفاجئة وبين ما يدور في ذهن مصطفى فقال : « العصابة بسيطة . منذ بضعة أيام قتل رجل زوجته بالفأس . تصور : أمسك بالفأس ونزل بها على رأسها وعنقها وبطنها - وعلى كل عضو من اعضائها ، كأنها شجرة يختطبها ، وتركها اوصالاً مبعثرة ، ثم ذب كالسبع وسلم نفسه للشرطة واتهما بالزنا . هل قامت الدنيا وقعدت ؟ لا . حكم على القاتل بالسجن لثلاث سنوات ، وغسل الشرف . »

- شيء رهيب ؟

- لماذا ؟ المرأة كانت منذ القدم موضع الشك . الدودة في قلبها ، وهي تعمل فيه تنتظر تسميم من يغرز اسنانه فيها ، فاذا رأيت الدودة عليك بالقضاء عليها قبل ان تقذف ببضها الى حلقك وفك . فالشمس التي تنضج الفاكهة ، تمجل ايضاً في توالد الدود .

- انك برموزك هذه تبالح في الحقيقة .

- اني اعد أميمة خائنة .

- أرجوك الا تمود الى ذكرها .

- وأعد خليلًا خائناً ايضاً .

.. كفي ! أف !

- لا بأس . في الاكروبولس نسيان الحقائق والرموز . ولو كنت مكانك لجئت الحقائق اضخم من الرموز . فاذا نسيت الرموز لم تنس الحقائق . - ولكن الصحيح هو عكس ذلك بالضبط . اننا لثلاث نسي الحقائق نبقى على خلاصتها مركزة في الرموز .

فضحك عباس وقال : « هذا القول لا شك من كتاب علم النفس الذي تقرأه . اتدري الحقيقة التي يرمز اليها كل ما في الوجود ؟ من يكثر قراءة الكتب لا ينجح في الحياة . هذه هي الحقيقة الاولى . كم كتاباً يقرأ خليل

الصفافيري في السنة؟ والحقيقة الثانية هي ان الشباب الذين مثلت يقبلون بالوم فيجلون اغتنام الحقائق . ما الذي حصلت عليه من أميمة سوى قبلة مختلسة منذ سنة او اكثر؟ ...
قبلة قبلة قبلة .

— أتخني كل هذا الحب؟

فدس مصطفى يده في شعرها وهمس: « لا تتكلمي لثلا يسمعوننا . »
ثم اسرع وأغلق الباب ، وفتح حنفية المغسلة لعل صوت الماء المتدفق يوم اي قادم مفاجيء بأن في الحمام من يغتسل ، فلا يدخل ، ولعل صوت الماء ، رش رش رش ... ينطلي على الغنمة اللذيذة وطريقة القبل ...
كان بقية المدعوين يلغطون في غرفة الاستقبال ، وهم يشربون الشاي ، ثم قام بعضهم وعزف اسطوانة رافضة . مصطفى يضغط أميمة الى صدره في الحمام . واصابعه مغروسة في لحمها ، وذراعاها تطوّقان عنقه بشدة وشفاهما تنقطع تقبيلاً .

ثم قالت أميمة: « لقد اكلت حرقى كاهها ... كيف اخرج الان بينهم وشفتاي هكذا بلا حمرة؟ » وتفرست في وجهها في المرأة التي فوق المغسلة . وفي الوقت نفسه علا صياح من غرفة الاستقبال البعيدة: « مصطفى ، مصطفى ! اين مصطفى؟ »

قتل من الحمام الى الباب الخلفي ومنه الى الحديقة ، ومن هناك —
دخل الى رواق ضيق طويل ، باهر الضوء ، بلغ بها الحديقة باضواها الملونة الخافتة ، وقد امتلأت باصوات الشارين والضاحكين والساخطين ، وانساب ابو بطرس من احدى الزوايا نحوها انسياب الارقسط في الادغال وهو يقول: « اهلاً ، اهلاً ، أبا فاضل . تفضلوا هنا ، هنا . » وشق لها طريقاً خلال الجو المترع بفوح العرق ، الى ان استقر بهما على مائدة تكاد تختفي تحت شجرة كثيفة . وطلب كل منهما نصف ربع من العرق .

واستأنف عباس الكلام: « كما قلت لك . ان الذين مثلك يقبلون بالوم — »

غير انه فوجيء بمقاطعة مصطفى له اذ قال: « وانت يا عباس ، الا تمنق الاوهام ليك ونهارك: »

— انا؟ انا رجل واقعي . أنا لا يأخذني وهم ، ولا يخدعني مظهر . انا لا اسمي الا وراء الحقائق .
— وراء فضيلة مثلاً .

— وراء فضيلة مثلاً ، واعرف سمرها بالضبط .

وحل بينهما فجأة صمت تبادل فيه النظرات لأول مرة ، الى ان جاء الغلام بالمشروب والثلاج والمزة ، ولكي يفسح لها المكان على المائدة ازاح كتب مصطفى جانباً ، وانصرف فجعل يصبان الماء في العرق ، ويضيفان اليه قطع الثلج ، ثم جرع عباس مقداراً كبيراً مما في كأسه وقال: « واعرف سمر خليل وأميمة بالضبط ايضاً . »

فشعر مصطفى بالدم يتفجر في رأسه وصاح .

« يكفي ، اف ! اما سئمت الحديث عنها؟ »

فدهش عباس لتلك الغضبة الفجائية وجرع ما تبقى في كأسه بسرعة وقال: « مهلاً ، مهلاً .. لماذا تغضب: ما الذي بقي بينك وبين خليل او بينك وبين أميمة حتى تغضب لكلامي؟ اني اعرف سمرها بالضبط ، لاني اراها بعيني ، لا بعينيك . واريبئك ان تراهما بعيني انا ، لتعرف حقيقة وضعك »

— بعينيك؟ انك لا ترى الا القبح والمهر .

— للنقي كل شيء نقي ! هاها ...

« القبح والفقر .. وهما متصلان اتصالاً خبيثاً ، ويجب ان تتخلص منها ».

قال ذلك خليل ولف ذراع مصطفى بذراعه وهما يمشيان في الطريق المرتفعة المظلة على الاكواخ الطينية المتكتلة المتواترة ، تحيط بكل منها تلال صغيرة من اقراس روث البقر ، وصبيبة عراة الاجسام يركضون هنا وهناك بقاماتهم السمراء الضئيلة ، ثم يجلسون على السراب والذباب يمتص القذى من عيونهم .

فقال مصطفى: « يجب ان نقرأ . يجب ان نقرأ كثيراً ، لنفهم معنى الفقر ونعرف كيف نعالجه . »

فقال خليل: « لن تكفينا الدراسة في السكينة . يجب ان نقرأ كل انواع الكتب ، ولا سيما بعد ان نتخرج . »

— سنقرأ ونكتب ونعمل ، لنقضي على كل هذا الفقر وهذا القبح . »
وانطلق نحوهما من احد الاكواخ كلب ، وجعل ينبسح وينبج ، ولا يكف عن النباح ، كأنه لا يعرف لوجوده معنى الا اذا قطع حنجرتيه بالنباح .

وسمع مصطفى عباساً يقول مستمراً: « وانت جالس بين مقاعد المقهى تقرأ كتب علم النفس (ومد عباس يده الى الكتب التي على المائدة) ولا ترى نفسك كالخشرة تحوم بين القاذورات ... القبح والمهر ! » وقذف بالكتب ارضاً .

فاسدل امام عيني مصطفى غشاء مظلم ، وانبتقت في أعضائه عزيمة جبارة فضت على كل ارادة عنده . ووجد نفسه يسك بالمائدة ويقابها بكل ما عليها في حضن عباس . فاختل توازن كرسي عباس ، وسقط على الارض قبل ان يدرك ما حدث ، ورفع مصطفى كرسيه بيدتين قويتين وهوى به على رأس صديقه وهو يحاول النهوض ويصيح: مصطفى ! مصطفى ! مصطفى ! مصطفى !
ومصطفى يتم بثباتم بذئبة تتكرر بين شفتيه دون ان يستطيع لها وفاء . غير ان جماعة من الشارين امسكوا بمصطفى من الخلف ، ومنعوا ذراعيه عن الحركة ، فجعل يركل ويرفس بقدميه لعلها تصيبان عباساً وهو يحاول النهوض ، واصابه مرة او مرتين بتقدم حمائه في الصدر ، الى ان جروه بعيداً صوب الرواق ، وقد ملأت رثتيه رائحة المستكي والكحول المنطاقة من انفاسهم . وراح ابو بطرس يرفرف حول الهرج والمرج عاجزاً ، خائفاً ، لان معارك السكاري تكلفه دائماً كرسيّاً قديماً هنا ومائدة مقلعة هناك . ولكن ما ان أبعد مصطفى حتى افبل ابو بطرس على عباس واعانه في القيام على قدميه ، وجعل ينفذ بالمشقة عن حضنه ما علق به من الفاصوليا والطماطم وبقية انواع المزة . وقد تبلل قميص عباس الالبيض وبنطلونه بشك مزر ، وأحس بالبال بين فخذه ، وفاح العرق من داخل قميصه .

اما مصطفى فادار ظهره الى الحديقة ودخل الرواق الضيق الطويل واحرج مندبلاً من جبهه مسح به دفق العرق فوق حاجبيه وبين عينيه وحول عنقه ، ولما بلغ الباب شعر انه قد نسي شيئاً لا يذكره بالضبط ، فجعل يتحسس جيوبه ، ثم التفت الى الورا ، وخطا في الرواق عائداً الى الحديقة ، فتصدى له خادمان ، وقال احدهما:

« اتريد أن تأتينا الشرطة الآن؟ »

غير انه دفعهما عنه ، وذهب الى حيث كان جمع من الرجال ملتفين حول عباس يلغطون بما حدث فصمتوا في الحال عند رؤيته عائداً ، غير انه انحنى فوق الكتب الثلاثة التي كانت مبعثرة على الارض ، وقد داس عليها الراخون والغادون اثناء المعركة ، والنقطة واحداً واحداً دون ان ينظر الى احد ، ورفع يده الى جبينه يمسح بها نضج العرق مرة اخرى ، وعاد الى الرواق الباهر الضوء ، وخرج منه الى الليل والشارع الطويل .

جبرا ابراهيم جبرا

بغداد